الفصل الثاني: الحياة العلمية للمؤلف والتعريف بكتاب الرسالة

المبحث الأول: الحياة العلمية للمؤلف

المطلب الأول: رحلته العلمية:

الفرع الأول: رحلته الى المدينة وعودته الى مكة:

التهم الشافعي معظم مافي مكة من علم، فأخذ عن الزنجي شيخ الحرم ومفتي مكة، وغيره وروى عن سفيان بن عيينة علم مكة أو غيره، وعلم بالحرم المكي، وأذن له بالفتوى في سن مبكرة وشهد له بالبراعة والقدرة فهل يقنع من العلم بأن يكون فقيها مكي المذهب أم يطمع في أكثر من ذلك؟[1]

يدرك من عرف الشافعي إلى العلم أنه لن ينفع غلته إلا ان رحل إلى المدينة، فيأخذ عن الإمام مالك امام دار الهجرة ووريث الفقهاء السبعة يقول النووي فلما أخذ الشافعي رحمه الله في الفقه وحصل منه على مسلم بن خالد الزنجي وغيره من أئمة مكة ماحصل رحل إلى المدينة قاصدا الأخذ عن أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه ورحلته مشهورة فيها مصنف مسموع[2]، ولرحلته إلى المدينة قصة طريفة معروفة، يتجلى فيها جلال العلم والعلماء وقد قصها الشافعي نفسه فيما روي عنه فقال فيها: " ثم اني خرجت عن مكة، فلزمت هذيلا في البادية اتعلم كلامها، واخذ طبعها أو كانت أفصح العرب فقال فبقيت فيهم سبع عشر سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الأداب والأخبار وأيام العرب، فمر بي رجل من الزبيريين من بني عمي فقال: "يا أبا عبد الله عز علي أن لا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه فتكون قد سدت أهل زمنك، فقلت فمن بقي تقصد؟" فقال لي: "مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ قال: "فوقع في قلبي فعمدت إلى الموطأ فأشعرته من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهرا، فقال: ثم دخلت الى والي مكة وأخذت كتابه إلى والي المدينة، وإلى مالك بن أنس قال قدمت المدينة فأبلغت الكتاب الوالي فلما قرأ قال:" يا فتى ان مشيت عن جوف المدينة الى جوف مكة حافيا راجلا أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس فلست أرى الذل حتى أقف ببابه

---

[1] – عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٧٣

[2] – النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج١، ص١١٧

فقلت: "أصلح الله الأمير ، إن رأي الأمير بوجه إليه ليحضر، قال هيهات ليت أني ركبت أنا ومن معي واصابنا من تراب العقيق، فلنا بعض حاجتنا قال فواعدته العصر، وركبنا جميعا، فوالله لكان كما قال لقد اصابنا من تراب العقيق قال فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير قولي لمولاك إني بالباب، قال: فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت : "إن مولاي يقرأك السلام ويقول إن كانت مسألة فأرفعها إلي في رقعة وإن كان للحديث فقد عرفته يوم المجلس فأنصرف، فقال لها قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة قال فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي ثم اذا انا بمالك وخرج وعليه المهابة والوقار وهو شيخ طويل مسنون اللحية فجلس وهو متطلس فرفع إليه الوالي الكتاب من يده ثم قال سبحان الله أو صار علم رسول الله (ص) يؤخذ بالرسائل؟ قال فرأيت الوالي وقد تهيبه أن يكلمه فتقدمت إليه وقلت أصلحك الله أني رجل مطلبي ومن مالي وقضي...فلما سمع كلامي نظر غلي ساعة وكانت لمالك فراسة فقال لي ماسمك؟ قلت محمد فقال لي يامحمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن ثم قال: نعم وكرامة اذا كان غدا يجيء ويجيء من يقرأ لك قال فقلت أن أقوم بالقراءة قال فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأ ظاهرا والكتاب في يدي فكلما تهيبت مالكا وأردت أن أقطع، أعجبه حسن قرائتي وإعرابي فيقول: يافتى زد حتى قرأته في أيام يسيرة ثم اقمت بالمدينة حتى توفي مالك بن أنس [1]مما يلاحظ أن صدر هذه القصة ذكر أو قريب منه في سبب قصده لمسلم بن خالد الزنجي في مكة، وقد يكون تكرر مرتين ومع رجل من الزبيريين.[2]

ويلاحظ أيضا أن عمر الشافعي على هذه الرواية حين رحل إلى مالك نحو سبع وعشرين سنة، لأنه اقد لزم البادية سبع عشر سنة، ولا يقل عمره حينذاك عن عشر سنوات وأكثر الروايات وأوثقها خالفت هذه الرواية في الأمرين الملاحظين فلم تذكر ذهابه الى مالك بن انس لزومه سبع عشر سنة[3].

[1]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٧، ص٢٨٤

[2]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٧٨

[3]- النووي، المجموع، ج١، ص١٥، النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج١، ص٤٧ ،ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٠

وسواءا أكان هذا التحديد دقيقا أم غير دقيق، فمن المؤكد أن الشافعي كان فتى حين ذهب إلى مالك لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره، فعبد الرحمان بن المهدي قال سمعت مالكا يقول: ما يأتيني قرشي أفهم من هذا الفتى[١] وقال مالك مرة له ان يك أحد أفلح فهذا الغلام[٢] كلمة الفتى والغلام وان كان يطلقها الشيوخ على تلاميذهم إلا أنها في الوقت ذاته تدل على صغر سنه خصوصا والروايات تؤيد ذلك.

وعلى كل حال لقد وصل الشافعي وهو فتى إلى المدينة قاصدا الامام مالك وكان به من الفقر مالله به عليم، ولكن غالب عزمه فقره وقهرت نهمته للعلم حاجته وقبله الإمام مالك بعد أن توسل إليه بأمير المدينة وبشيخه مسلم بن خالد الزنجي حيث سأله الشافعي أن يكتب لمالك يوصيه به فكتب إليه وقرأه مالك[٣].

وجلس الشافعي إلى شيخه الإمام مالك يشرع في القراءة عليه وخشي الإمام ألا يحسن الشافعي الصغير قراءة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلب منه أن يأتي بمن يقرأ له الموطأ ولكن الشافعي كان قد استعد لهذا اللقاء المهيب لقاء الامام مالك فحفظ الموطأ وأتقنه بالقراءة مع فصاحته المعروفة وحسن بيانه لذلك قال الإمام مالك: اني أقرأه ظاهرا فلما بادر بالقراءة أعجب بقرائته فإذا أراد أن يقطع القراءة هيبة له أغراه بقوله بالله يا فتى زد حتى عليه الموطأ في أيام يسيرة[٤].

ويقول الشافعي ثم أقمت بالمدينة حتى توفي مالك بن أنس[٥] أي سنة مائة وتسعة وسبعين هجرية وقد كان عمر الشافعي تسعا وعشرين سنة ومعنى هذا انه لبث في المدينة بضع عشرة سنة والضاهر أنه لم يأخذ عن مالك بن أنس الموطأ فقط فقد قرأ الموطأ من حفظه في أيام يسيرة بل أخذ كل ماعند الإمام مالك من حديث وفقه واجتهاد ونقول وفتاوى عن الصحابة والتابعين وأخذ عنه مابناه عليه من

---

[١]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٤

[٢]- ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٦٦

[٣]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٧٩

[٤]- المرجع نفسه، ص٨٠

[٥]- ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج١٧، ص٢٨٧

عمل أهل المدينة وهل اكتفى الشافعي بهذه الإقامة الطويلة في المدينة صابرا على القلة والفقر بما أخذ عن الإمام مالك أم أخذ عن شيوخ آخرين؟

المحقق أنه لم يدع شيخا من مشايخ المدينة إلا اخذ عنه وجمع علمه يقول الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن الزبير بن عبد الله بن الزبير في قصة الشافعي وذهابه إلى مالك يقول: "فما ترك عن مالك بن أنس أي من العلم إلا الأقل ولا عند شيخ من مشايخ المدينة إلا جمعه"[١]، ومعنى ذلك أنه أحاط بعلم الحجاز وحسبه أن أخذ عن سفيان بن عيينة بمكة وعن مالك بالمدينة يقول الشافعي:" لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز[٢] ويقول مالك وسفيان قرينان في اسناد الحجاز"[٣].

كان الشافعي في إقامته بالمدينة يؤوب بين الحين والحين إلى مكة منشئه وموطن أجداده وفيها أمه العاقلة ماتنفك تنصح له وتحسن توجيهه وفيها شيوخه الذين يحملهم ولا ينسى فضلهم عليه[٤].

فقد قدم مرة مكة يسعى عند بعض قرابته من الطالبين أن يعطيه من الدنيا مايسد به خلته ففوجئ بنقمة منه عليه لتركه مذهب أهل مكة واخذه عن مالك[٥].

يقول الشافعي في حديث له:" فجئت ألى مصعب الزبيري فكلمته أن يكلم بعض اهلينا يعني من الطالبين فيعطيني شيئا من الدنيا فإنه كان بي من الفقر مالله به عليم فكلمه فقال تكلمني في رجل كان منا فخالقنا إلى غيرنا ينقم عليه اخذه عن مالك قال فأعطاني مائة دينار"[٦].

وقدم مرة اخرى مكة فسعى له بعض القرشيين عند والي على اليمن قدم مكة أن يصحبه الى اليمن لعله يجد له عملا وتأهب للذهاب الى اليمن[٧]

---

[١]- ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج١٧، ص٢٨٣

[٢]- ابن أبي حاتم الرازي، آداب الشافعي ومناقبه، ص٢٠٥

[٣]- المرجع نفسه، ص٢٠٥

[٤]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٧٦

[٥]- المرجع نفسه، ص٧٦

[٦]- السبكي، طبقات الشافعية، ج٢، ص١٢١

[٧]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٧٦

الفرع الثاني:رحلته الى اليمن

روى الحميدي عن الشافعي قصة ذهابه الى اليمن فقال: "قدم وال عن اليمن يعني من مكة فكلمه بعض القرشيين في أن اصحبه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتجمل به، فرهنت دارا، فتحملت معها، فلما قدمنا عملت له على عمل، فحمدت فيه، فزادني".[1]

وعن الكرابيسي قال الشافعي: "وقال لي مصعب: "ان هارون الرشيد قد كتب إلي أن أصير إلى اليمن قاضيا، فهل تخرج معي، لعل الله أن يعوضك ما كان هذا الرجل يعوضك؟ يريد به بعض الطالبين من قرابته الذي أعطاه مائة دينار، وانتقده في ذهابه إلى مالك، وقد مر قريبا للإشارة إليه قال: "فخرج قاضيا على اليمن فخرجت معه".

وفي هذين النصين تخالف، فما رواه الحميدي انه يفيد صحب واليا على اليمن حين قدم مكة وعاد الى اليمن، والظاهر من رواية الكرابيسي أنه خرج مع مصعب بن الزبير حين ولاه الرشيد قضاء اليمن.

فأي هذين الأمرين كان؟ يجوز أن يكون كلا النصين صحيحا اذا قدرنا أنه يريد بقوله:(بعض القرشيين) في النص الأول:مصعبا، وهو المصرح به في النص الثاني، وأنهم خرجوا جميعا الى اليمن: الوالي، والقاضي مصعب الزبيري، مصطحبين الشافعي.[2]

الظاهر أنه مع ما اشتهر عنه في مكة اولا وفي المدينة ثانيا من العلم والصيانة لم يتولى في أول أمره إلا عملا صغيرا، قيل: انه استخدم في أحد الخدم الديوانية باليمن، ولعل هذه الخدم كانت متعلقة بالقضاء موضع فهمه واختصاصه ومهما يكن هذا العمل، فقد بذل فيه جهدا حمد فيه، وشهر بين الناس، فزاد له الوالي في علمه، وقد مر قريبا قول الشافعي:"فلما قدمنا أي اليمن عملت له على عمل ، فحمدت فيه فزادني" والتقي المستقيم من لا يستهين بمصالح الناس ان ولي عليهم، بل يقوم بما

---

[1]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٦٩

[2]- المرجع نفسه، ص٦٩

تطلبه عليه امانته ويمليه عليه دينه، وبهذا اشتهر الشافعي، حتى جاوزت شهرته اليمن الى مكة، فحين وفد الناس في شهر رجب الى مكة، انطلقت ألسنتهم بالثناء على الشافعي،

يقول الشافعي: "وفد الناس في شهر رجب يعني الى مكة فأتوا علي فصار لي بذلك ذكر حتى شيخه سفيان بن عيينة محدث مكة رحب به حين لقيه وقال: قد بلغني حسن ما انتشر عنك، وما أديت كل الذي لله عليك، فلا تعد"، هذا رأي سفيان: أن لا يعود الى العمل، وهو رأي شيخه المكي ابراهيم بن أبي يحي أيضا، فقد لامه على دخوله في العمل، ويقول الشافعي: "فكانت موعضة بن عيينة أنفع لي ذلك لأنها قيلت في رفق وحكمة ومحبة، وبالرغم من أن مس الحاجة دعى الشافعي الى العمل، فإن شيخي الشافعي، يكبرانه أن يتولى عملا قد ينقص من دينه وورعه، ويثلم من مروئته ونبله، وأيضا فإن ما يلاحظانه من عقله وعلمه وذكائه، وما يتوسمانه فيه أن يكون اماما من فحول ائمة المسلمين، هو الذي دعاهما إلى حظه على ترك العمل، ملاحظين أن ما ينتظره الناس من نفع لهم في دينه وشرعة نبيه اولى من سعيه لسد حاجة نفسه.

ويقول الشافعي:" ثم وليت نجران، وبها بنو الحارث بن عبد المدان، وموالي ثقيف، وكان الوالي اذا أتاهم صانعوه، فأرادوني على نحو ذلك، فلم يجدوا ذلك عندي، وتظلم عندي ناس كثير،

فجمعتهم وقلت:" اجمعوا لي سبعا يكونوا من عدلوه عدلا، ومن جرحوه مجروحا، وجلست وأمرت بتقديم الخصوم،وأجلست السبعة حولي، فإذا شهد الشاهد التفت إليهم، فعملت بتعدليهم، أو تجريحهم، ولم أزل حتى أتيت على جميع الظلمات،فلما انتهيت، جعلت احكم وأسجل، فلما رأوا ذلك قالوا: هذه الضياع ليست لنا، وانما هي لمنصور بن المهدي، فقلت للكاتب: "اكتب، وأقر المذكورون أن الضيعة التي حكمت عليه فيها ليست له، وانما هي لمنصور، ومنصور باق على حجته فيها ان كانت، قال: "فاجتمعوا وخرجوا الى مكة وعملوا في أمر حتى حملت الى العراق"، الى آخر ما قال:

فما هذه الولاية بنجران؟ قد تكون ولاية عادية بجزء من اليمن، يقول النووي: "ثم ولي باليمن، واشتهر من حسن سيرته، وحمله الناس على السنة ، والطرائق الجميلة وأشياء كثيرة معروف"، وقد يكون المراد من هذه الولاية القضاء، فإن عمله فيها عمل القاضي، ومهما تكن هذه الولاية فقد كانت

سببا في محنة الشافعي، وهي ضريبة الشرف والدين، يؤديها، من يؤثر العدل، ويتساوى الناس عنده فيه، ويبتغي رضى الله ولا يبالي بسخط الناس.

وقد حاول ذوو النفوذ مصانعة الشافعي كما اعتادوا مع من يتولى امورهم، ولكنهم لم يفلحوا، ولم يجدوا في نفسه استجابة ما لإغرائهم واستهوائهم، واتجه بكل قواه إلى إقامة العدل، وازهاق الباطل، لذلك اجمعوا امرهم وسعوا به إلى السلطان سعاية منكرة، كادت تودي به لولا حفظ الله له.[1]

الفرع الثالث: اخذه إلى العراق متهما و عودته الى مكة:

في سنة مائة واربعة وسبعين هجري، حمل الشافعي إلى العراق كرها لا طوعا، فقد أوثقه حماد البربري والي مكة واليمن في الحديد بتهمة الخروج على الدولة، فلما انتهى الى بغداد قيل له: الزم الباب، يقول الشافعي: "فنظرت، فإذا أنا لابد لي من الإختلاف إلى بعض اولئك وكان محمد بن الحسن جيد المنزلة، فاختلفت إليه وقلت: هذا أشبه لي من طريق العلم، فلزمته، وكتبت كتبه، وعرفت قوله، وكان اذا قام ناظرت أصحابه".

لقد ابتهل الشافعي هذه الفرصة، فرصة لزومه باب الخليفة، أي بقائه ببغداد رهن الطلب، فانصرف يتزود من العلم، ويطلع على كل جديد، من مذاهب أهل الرأي، وقد نفذ ماكان معه من نفقة، فقد بذلها على كتب محمد بن الحسن رحمه الله فأي صبر هذا؟، وأي ثقة بالله هذه؟ رجل متهم تهمة توجب القتل، وقد نفذ زاده، لبث ينتظر بباب الخليفة، قضاء الله فيه، ومع ذلك فتح نفسه للعلم، وذهب يتزود منه، فكتب كتب محمد بن الحسن، وعرف قوله، ونظر أصحابه ! تالله مايكون ذلك إلا لعظماء الرجال، يقول الشافعي: "حملت عن محمد بن الحسن حمل بخت ليس عليه إلا سماعي" ويقول: "انفقت على كتب محمد بن الحسن ستين دينارا، ثم تدبرتها، فوضعت إلى جنبي كل مسأله حديثا" يعني ردا عليه.

لم يذكر أحد من الرواة كم لبث الشافعي، في بغداد هذه المرة، وهي المرة الأولى، والمضمون أن اقامته كانت طويلة، ربما، جاوزت سنوات، فكتابة كتب محمد بن الحسن وسماعها عليه، واشتغاله

---

[1]- ابن أبي حاتم، آداب الشافعي ومناقبه، ص٣٠

بمناظرة العلماء والفقهاء والمحدثين، واخذه العلم عن الشيوخ، كل هذا يحتاج الى زمن طويل، وقد تكون اقامته طالت، إلى حين وفاة محمد بن الحسن، سنة مائة وتسعة وسبعين هجري أو قبلها بقليل، ثم قفل عائدا الى مكة.[١]

لقد غادر الشافعي العراق وترك أثرا لا يمحى في نفوس الموافقين والمخالفين، حتى اجمعوا على الشهادة بعقله وفهمه وسرعة بديهته، قال محمد بن اسحاق الصاغاني: سألت يحي بن أكثم عن الشافعي، فقال: "كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة كثيرا، فكان الشافعي رجلا، قرشي العقل والفهم والذهن، صافي العقل والفهم والدماغ سريع الإصابة، ولو كان امعن في الحديث لإستغنت به أمة محمد عن غيره من العلماء".[٢]

عاد الشافعي الى مكة، وقد انقذه الله من محنة مصيرها الموت، عاد ومعه حمل بعير من علم أهل الرأي وعليه سماعه من فقيه العراق محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فاجتمع له في ذلك علم الحجاز وأكثره آثار وسنن وعلم أهل الرأي المهرة في الفقه والقياس والإستنباط، ولم يكن طوال اقامته في بغداد هذه المرة يراوده أن يدع التزامه مذهب مالك، بل مضى بقوة يدافع عن فقهه، بأصوله وفروعه، ويقرع أهل الرأي بالحجة انتصارا لمذهبه، لكن إقتحامه لميدان المناظرات ومقارعة الأدلة بالأدلة، قد آثار في نفسه الرغبة في أن يقارن بين الأدلة، ويميز ضعيفها من قويها وخطأئها من صوابها. وتجلى له، هذا الإتجاه حين رجع إلى مكة، وشرع يعيد النظر في أصول المذاهب وفروعها، ومن هنا نبتت في رأسه فكرة الإجتهاد المطلق، لقد حفظ وفهم علم الأولين والآخرين من الفقهاء والمحدثين، وعرف مالها وماعليها، من محاسينها ومن مآخذها، فما عليه إلا أن يأخذ من كل ماعلم أقواه حجة، وأوضحه منهجا، وأدناه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، وماكان يبالي بهذه المرحلة أن يتعصب أو ينتصر الإمام، انما كان تعصبه وانتصاره للحق وحده ولدين الله خوفا عليه من تحريف أو تبديل عما في كتاب الله وحديث رسوله.[٣]

---

[١]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٩٩، ص١٠٠، ص١٠٧

[٢]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٦

[٣]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي ص١١١- ص١١٢

حدث أبو الوليد بن أبي الجارود قال: "كنا نتحدث نحن، وأصحابنا من اهل مكة أن الشافعي أخذ كتب بن جريش عن أربعة أنفس: عن مسلم بن خالد، وعن سعيد بن سالم، وهذان فقيهان، وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد وكان اعلمهم بإبن جريش وعن عبد الله بن حارث المخزومي، وكان من الأثبات، وانتهت رياسة الفقه في المدينة إلى مالك بن أنس، رحل إليه ولازمه وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه، محمد بن الحسن جملا ليس فيه شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث وتصرف في ذلك، حتى أصل الاصول وقعد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره وعلا ذكره، وارتفع قدره، حتى صار منه ماصار".

لقد قبض الشافعي في أهلية وقدرة وعلم على ناصية الإجتهاد، فأصل الأصول ووضع القواعد واتخذ له حلقة في المسجد الحرام، جلبت إليه الكثير ذوي المكانة للعلم، يستمعون إليه طرائقه الجديدة في الاصول والكليات، حتى ملأ عقولهم، وشهدوا له بالتفوق والفهم والعقل، ومن كبار هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل الذي وفد حاجا إلى مكة، ودخل المسجد الحرام يلقى من به من كبار العلماء والمحدثين، وكان اشهرهم سفيان بن عيينة، وشغل نظره الشافعي في حلقته، وقد عرفه في العراق فرأى فيه جديدا غير الرواية، رأى فيه فهما ثاقبا لكتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ص وسمع منه أصولا وقواعد لم يكن له عهد بسماعها من أحد، تدل على عظم عقله وعميق فهمه اذا كان يدع مجلس شيوخ الرواية، ويلازم حلقة الشافعي.[١]

ولعل حلقة الشافعي في المسجد الحرام قضت على كل حلقة بعظمها وحيويتها، وما يعقد فيها من مناظرات، وما يثار فيها من مباحث، بل كان أحيانا يندب الناس يسألوه عن فقه آية أو تبيان سنة، فيجيب أحسن جواب وأقطعه[٢].

[١]- عبد الغني القدر، الإمام الشافعي، ص١١٣

[٢]- المرجع نفسه، ص١١٦

يظهر ان شهرة الشافعي في حلقته في المسجد الحرام، وماكان يثار فيها من مباحث جديدة كل الجدة في الأصول والقواعد، جاوزت حدود مكة فبلغت العراق، فعرف علماءه قيمة ما ينثره بين الناس من علم، هذا مادعا حافظ العراق الإمام العلم عبد الرحمان بن مهدي أن يكتب إلى الشافعي وهو بمكة، يطلب منه فيه وهو شاب أن يضع له كتابا فيه معاني القرآن، ويجمع مقبول الأخبار فيه وحجة الإجماع، وبيان الناس والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة.[١]

ويقول علي بن المديني: "قلت لمحمد بن ادريس الشافعي: اجب عبد الرحمان بن مهدي عن كتابه، فقد كتب إليك يسألك وهو متشوق إلى جوابك، قال:"فأجابه الشافعي، وهو كتاب الرسالة التي كتبت عنه بالعراق وانما هي رسالته إلى عبد الرحمان ابن مهدي.[٢]

هذه هي الرسالة،كتبها الشافعي في هذه الفترة بمكة، ونقلها إلى ابن مهدي الحارث بن سريج النقال الخوارزمي ثم البغدادي، وبسبب ذلك سمي (النقال) ويروي الفخر الرازي أن الشافعي كتب الرسالة ببغداد إذ يقول: "اعلم ان الشافعي رضي الله عنه صنف كتاب الرسالة ببغداد ولما رجع الى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة، وفي كل واحد منهما علم كثير".[٣]

ولامعنى إن يكتب إلى الشافعي،ويحمل الرسالة ابن سريج النقال، اذا كان كلاهما في بغداد، إلا إذا قدرنا أن ابن المهدي كان بالبصرة والشافعي ببغداد، وهو بعيد.

هذه خلاصة عن بعض نشاطات الشافعي في نشر آرائه واجتهاداته في الأصول والفقه، هذه الفترة في مكة، وكنا نود لو تكون هذه الفترة موضحة محددة في كتب المؤرخين والمترجمين، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله.[٤]

---

[١]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٧، ص٣١٣

[٢]- ابن عبد البر، الإنتقاء، ص٧٢، ص٧٣

[٣]- ابن أبي حاتم، آداب الشافعي ومناقبه، ص٥٧

[٤]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص١١٩

الفرع الرابع: رحلته الثانية والثالثة إلى العراق:

رحلة الشافعي مختارا إلى بغداد الرحلة الثانية سنة خمس وتسعين ومائة، وكانت أنفع رحلة واخصبها، واجداها على نفسه وعلى الناس، مع انها كانت قصيرة لم تجاوز السنتين، وما نعلم السبب المباشر الذي دعاه إلى هذه الرحلة، واغالب أنه كان سب علميا، فقد عرف الشافعي بغداد قبل وعرف علمائها، وأخذ عن أهل الرأي منه، وخبر الصراع العنيف بين علماء الحديث الذين يتشبثون بظاهر النص لا يكادون يخرجون عنه، ومن ورائهم أكثر الناس، وبين فقهاء الرأي الذين هم في الإتجاه المقابل، لا يأخذون بالنص حتى يقتلوه تمحيصا وتفريعا ويولون القياس والإستحسان والعرف وما إلى ذلك الإشراف على كثير من اجتهادهم، وقد اوتو القدرة على المجادلة والبحث، ومع هؤلاء نفوذ السلطان وقوته، وما انفك الشافعي عن بغداد للمرة الأولى إلا وقد كون في نفسه رأيا اجتهاديا، بعيدا عن سطحية اؤلك، ومتجافيا عن تحكم الرأي عند هؤلاء.[1]

وقد سبقه إلى بغداد هذه المرة، شهرة وذكر، بثهما كبار المحدثين والفقهاء، كأحمد بن حنبل واسحاق بن رهويه، وبشر المريسي، وعبد الرحمان بن مهدي، الذي ألف له الشافعي الرسالة مستجيبا لطلبه، ومع ذلك فإن دخول الشافعي العراق، يعلن فيه اجتهاده مغامرة مرة، ان لم يصطحب من سلاح العلم والحجة والبيان مايوازي الفريقين، إن لم يربو عليهما، على أن الطريق قد تكون موطأ له بعض الشيء من جهة المحدثين وفقهائهم، فقد أتى ينصر السنة ويدعم أهلها، ويفتح فتحا مبينا في أصول فهمها، والإستنباط منها واحكام احكامها يقول النووي: "ونشر أي في العراق علم الحديث، ومذهب أهله ونصر السنة وشاع ذكره وفضله".[2]

ولقد نزل حين اتى بغداد أبي حسان الزيادي، ويقال: نزل على الزعفراني، وكان أديبا موسرا متصلا بالسلطان وقيل، نزل على بشر المريسي، فأنزله في العلو، وهو في السفل اعظاما له ، إلى ان قالت له أمه: "يا أبا عبد الله، ايش تصنع عند هذا الزنديق؟" قال: "فتحول عنه".[3]

[1]- المرجع السابق، ص١٢٣

[2]- النووي، المجموع، ج١، ص١٦

[3]- ابن حجر، تولي التأسيس، ص٧٢

ثم قصد الشافعي الجامع الغربي، وفيه تعقد حلقات العلم وانتحى منه ناحية، وبدأ يعرض أصوله وقواعده وموارد فقهه، فأمه المتعلمون والعلماء، واكثرهم انما حضر مجلسه أول الأمر ليعجم عوده، ويمتحن علومه، وبعضهم أتى معتدا بمذهبه، شامخا بأنفه، يريد أن يسخر من المتفقه الجديد على زعمه، فلما سمع منه سحره بيانه، واسرته حجته، وانقلب إلى رأيه، وتمذهب بمذهبه، ومن هؤلاء أبو ثور وحسين بن علي الكرابيسي، قال أبوثور:"لما ورد الشافعي العراق، وجائني حسينه بن علي الكرابيسي وكان يختلف معي إلى أهل الرأي، فقال لي: "ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه، قم بنا نسخر منه، فذهبنا إليه، فسأله الحسين عن مسألة، فلم يزل يقول: "قال الله، قال رسول الله، حتى اضلم علينا الليل، فتركنا ما كنا فيه واتبعناه".[1]

ومازال الشافعي رحمه الله يصول ويجول، ويأتي كل يوم بجديد من فهم كلام الله، وفقه حديث رسول الله، حتى اخضع الأعناق، لفضله وحمل العلماء على الإقرار بعلمه وظهر أمره بين الناس، وانفكت أكثر حلقات المخالفين في الجامع الغربي، لم يثبت منها إلا القليل، قال ابراهيم الحربي: "قدم الشافعي بغداد، وفي الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي فلما كان يوم الجمعة لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع" وإن للشافعي حصيلة وجهد علمي ضخم ببغداد في هذه المرحلة، ومن عرف بغداد في أواخر المائة الثانية، وما فيها من اجناس وألوان من مختلف الملل والنحل والمذاهب، ومايضطرب فيها من أفكار وآراء في الفلسفة والعلوم والديانات، ومايزخر فيها من مال وترف وسلطان وماتعج به مساجدها من متكلم بالدين طاعة وزهدا وتقوى، أو متكلما به محدثا يعنتني بالرواية، او مجتهدا يستنبط الأحكام ومن متكلم به من اهل الاهواء، ومن عرف أن آلاف من العلماء والمفكرين والآدباء والشعراء، يفدون إليها من كل صوب، ويغيظ أكثرهم في عظمتها وحضراتها، وعرف أن أمضى كل هؤلاء نفوذا في العراق كله بين عامة الناس هم المحدثون، وأن أمنعهم لدى السلطان فقهاء الرأي، من عرف ذلك استطاع أن يتخيل قدرة الشافعي وأثره في العراق وهو خال من كل سلاح وقوة تفراضانه عليهم إلا قوة العقل والفهم والعلم والدليل، فقد نظم المحدثين، وعرفهم طريقة فهم السنة،

[1]- المرجع نفسه، ص٥٧

واستنباط الاحكام منها، وكف مغالاة أهل الرأي بمناظرته لهم على ملأ ، ونشر مذهبه الذي جمع خير مافي الطريقتين، فقد اعتمد النص أولا، وضبط القياس واحكمه، وإذا ثبت النص واحكم معناه خفض جناحه له وطرح كل ماعاداه، وليس لأحد دون رسول الله ص حجة وقد اهتم بأصول اجتهاده، فوضع لذلك كتابه المسمى الرسالة التي كتبها لعد الرحمان بن مهدي، وبث منها على الناس أصوله، فعني فيها العلماء وتدارسوها، وقرأها بعضهم على الشافعي نفسه، وطلب من بعضهم أن يلتمس أن من يقرأها بحضرتهم.

وأما البحث في الفروع وادلتها، والرد على المخالفين ومناضرتهم، فهذه المباحث كلها جمعها في كتاب الحجة أو كما سماه ابن نديم في المبسوط.[١]

وتسميته بالحجة أعرف وأشهر، وهذا الكتاب كما جاء في كشف الظنون:" مجلد ضخم، ألفه بالعراق وإذا أطلق القديم في مذهبه يراد به هذا التصنيف"[٢].

ويقول النووي:" صنف في العراق كتابه القديم المسمة كتاب الحجة ويرويه عنه أربعة من كبار أصحابه العراقيين وهم: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والزعفراني، والكرابيسي، وأتقنهم له رواية الزعفراني"[٣]، وكتاب الحجة ليس كتابا واحدا ! وانما هو عبارة عن مجموعة كتب، مثل كتاب الأم الذي ألفه بمصر، وسيأتي الحديث عليه، ولقد روى تلاميذه من العراقيين هذين الكتابين، الرسالة والحجة، كما رووا عنه الكثير غير هذا، تقرؤوها منتشرة في كتب كثيرة، وقد أنفرد الإمام احمد برواية أشياء كثيرة عنه، منها أنه سمع منه موطأ مالك، يروي ذلك صالح بن أحمد بن حنبل"، ويقول سمعت أبي يقول: سمعت الموطأ عن الشافعي لأنني رأيته فيه ليثا[٤]، ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل[٥]، كان أبي يصف

[١]- المرجع نفسه، ص١٢٧

[٢]– عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص١٣٧

[٣]– النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج١، ص٤٨

[٤]– ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٧

[٥]– الشيباني: أبو عبد الرحمان حافظ من أهل بغداد، له "الزوائد على كتاب الزهد وزوائد المسند، توفي سنة ٢٩٠ هـ

الشافعي فيطنب في وصفه وقد كتب عنه حديثا كثرا، وكتب أنا من كتبه بخطه بعد موته هذه أحاديث مما سمعه عنه"[1].

هذه خلاصة لفترة إقامته ببغداد للمرة الثانية، وماكان له فيها عن آثار، ومانشر من علم، ما أنجب من المجتهدين: كأحمد بن حنبل وأبي ثور، وغيرهما من فحول العلماء[2].

رحلته الثالثة للعراق:

عرفنا من قبل أن الشافعي لبث في رحلته الثانية ببغداد نحو سنتين أقام فيها مذهبه، وثبت فيها قواعده، وأسس من تلاميذه أركانا، ينشرون علمه، ويناضلون عنه[3].

ثم قفل عائدا إلى مكة، فلزم حلقته، وينشر مذهبه، وبث علمه، ونادى بأصوله وقواعده، ولم تصل إقامته في مكة حتى نزع به الحنين إلى بغداد.[4]

فعاد إليها سنة، ١٩٧ هـ، وقيل سنة ١٩٩هـ ، وأقام نحوا من ثمانية أشهر، وقيل: شهرا واحدا، قال الحسن بن محمد الزعفراني:" قدم علينا الشافعي سنة خمس وتسعين ومائة. فأقام عندنا سنتين، ثم خرج إلى مكة، ثم قدم علينا سنة ثمان وتسعين، فأقام عندنا أشهرا، ثم خرج إلى مصر"[5]، فلم تطل إقامته في في بغداد هذه المرة، وماكان قدومه فيما يبدو، إلا ليتعهد دوحته العظيمة التي غرسها في بغداد، العلماء والمحدثون وكانت لهم أمنا من غلبة الرأي والهوى[6].

ولم يؤثر عن الشافعي في هذه المرحلة الثالثة شيء جديد غير ما أسسه وأحكم امره في رحلته الثانية[7].

[1]- المرجع السابق، ص٥٧

[2]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص١٤٦

[3]- المرجع السابق، ص١٤٧

[4]- المرجع نفسه، ص١٤٧

[5]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٧٢

[6]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص١٤٨

[7]- المرجع نفسه، ص١٤٨

الفرع الخامس: رحلته إلى مصر

رجع الشافعي الى مكة بعد رحلته الثالثة إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة، وأقام فيها فترة قصيرة، إلى أن هيأ الله له الخروج إلى مصر[١].

والسبب في قدومه إلى مصر: ان العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس اصطحبه فصحبه[٢]، وكان العباس هذا خليفة لأبيه عبد الله على مصر، واختلفوا في السنة التي قدم فيها إلى مصر، والأكثر أنها سنة تسع وتسعين ومائة[٣] لها قال حرملة بن يحي وقيل[٤]: سنة مائتين كما قال الربيع بن سليمان: "ويقول النووي: "ولعله قدم في آخر سنة تسع وتسعين ومائة جمعا بين الروايين"[٥]، وقيل: احدى ومائتين[٦] ونزل على اخواله من الأزد، روي عن ياسين بن عبد الأحد، قال: لما قدم الشافعي مصر أتاه جدي وأنا معه فسأله أن ينزل عليه فأبى، وقال إني أريد أن أنزل عن أخوالي الازد[٧].

وقيل نزل على عبد الله بن الحكم، ولعله نزل أولا على الأزد ثم دعاه النزول عنده عبد الله بن الحكم فاستجاب له، ففي سيرة عمر بن عبد العزيز، في ترجمة عبد الله بن عبد الحكم راوي الكتاب كان عبد الله بن عبد الحكم صديقا للإمام الشافعي وعليه نزل حين قدومه إلى مصر، فأحسن إليه، وأكرم مثواه، وبلغ الغاية في بره، وأعطاه من ماله ألف دينار، وأخذ له عن أبن عمه التاجر ألف دينار، ومن رجلين آخرين من أصحابه ألف دينار، وكتب كتبه لنفسه وابنه، وضم أبنه محمدا إليه، ولم يزل

---

[١]- المرجع نفسه ، ص١٥١

[٢]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٧، ص٣٢١

[٣]- النووي، تهذيب الأسماء واللغات،ج١، ص٤٧، المجموع، ج١ ،ص١٦، ابن خلكان،وفيات الأعيان، ج١، ص٥٦٦

[٤]- ابن عبد البر، الإنتقاء، ص٦٧

[٥]- النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ص ٥٦٦

[٦]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٦٦

[٧]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٧٧

على الطافه واكرامه إلى أن توفي الإمام الشافعي رضي الله عنه عنده و في تربيتهم المعروفة حينئذ بتربية بني الحكم.[1]

ولكن كانت رحلة الشافعي الثانية إلى العراق أخصب رحلاته وأنفعها إن رحلته الى مصر لاتقل عنها إن لم تكن أجدى وأغر وأبهى ولكن الفصل للمتقدم ففي العراق ظهر له في أصوله كتاب الرسالة، وفي الفروع وادلتها والمناظرات حولهما ألف كتاب الحجة فلما جاء مصر أعاد النظر في الرسالة فجدد تأليفها، والرسالة التي بأيدي الناس هي الرسالة المؤلفة في مصر، وسيأتي بحثها، كما أعاد النظر في كتاب الحجة، فألف بدله كتاب الأم، وهو مجموع لكتب كثيرة جديدة ألفها الشافعي في مصر وهو المعروف والمشهور في أيامنا، واذا قيل في المذهب الشافعي: القديم فإنما يراد به أقواله في العراق المجموعة في كتابه الحجة واذا قيل الجديد فإنما يراد به أقواله في مصر المجموعة في كتاب الأم وابتكر كتبا كما يقول النووي لم يسبق إليها منها أصول الفقه كتاب القيامة كتاب الجزية كتاب قتال أهل البغي وغيرها.[2]

ومن سنة العلماء العاملين، والأئمة المقتدى بهم، أن يبادروا قبل غيرهم إلى القيام بفروض الكفاية ومن هذه المرابطة في الثغور وهي المواضع التي يخاف هجوم العدو منها على بلد مسلم والمرابطة هي الجهاد في سبيل الله يشعر المؤمن أن الجهاد فريضة لا يجوز أن يتوناني عنها لذلك كانت المرابطة في سبيل الله شعار العلماء والأتقياء والأولياء الصالحين وقد أدى هذه الفريضة كما أداها قبله كثير من أخيار الأمة الإمام الشافعي فقد خرج إلى الإسكندرية مرابطا مع مافيه من سقم وضعف.[3]

يقول الربيع: "خرجت مع الشافعي من الفسطاط إلى الإسكندرية مرابطا فكان يصلي الصلوات الخمسة في المسجد الجامع، ثم يصير إلى المحرس فيستقبل البحر بوجهه، وهو جالس يقرأ القرآن حتى أحصيت عليه في يوم وليلة ستين ختمة في شهر واحد"[4]

---

[1]- ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق احمد عبيد، ص١٩

[2]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص١٥٣

[3]- المرجع نفسه، ص١٧٢

[4]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٩

المطلب الثاني: شيوخه وطلابه

الفرع الأول: شيوخه

تقدم القول في نشأته بمكة: أن أول شيخ قصد إليه الشافعي حين عزم على دراسة الفقه هو مسلم بن خالد الزنجي، ثم ام مجلس سفيان بن عيينة، ثم تهيأت له الأسباب للذهاب إلى المدينة، وليأخذ عن مالك، ثم لما أتت به محنة إلى العراق كتب كتب محمد بن الحسن وسمعها عليه، هؤلاء أكثر شيوخ الشافعي نفعا له وتأثيرا عليه، وأكثر هؤلاء تأثيرا ونفعا سفيان بن عيينة، ومالك واذا ذكر العلماء فمالك كما نقل الشافعي[1].

ونأتي على ذكر شيوخه مرتين على الحروف المعجم كما جاء ترتيبهم في كتاب توالي التأسيس لإبن حجر.[2]

ابراهيم بن سعد بن ابراهيم الزهري، ابراهيم بن عبد العزيز بن أبي محذورة ،ابراهيم بن محمد بن أبي يحي، ابراهيم بن الهرم، اسامة بن زيد بن أسلم، اسحاق بن يوسف الأزرق، اسماعيل بن ابراهيم من مقسم، اسماعيل بن جعفر بن أبي كثير، اسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، أنس بن عياض، أيوب بن سويد الرملي، جعفر بن ابراهيم الطائي، حاتم بن اسماعيل المدني، الحارث بن عمير البصري، الحر بن ابراهيم، حسين الألثع، حماد بن أسامة، حماد بن زيد بن البصري، حماد بن ظريف، داود بن عبد الرحمان العطار، سعيد بن سالم القداح، سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، سعيد ابن مسلمة الأموي، سفيان بن عيينة، سليمان ابن عمرو، سماك بن الفضل الجندي، الضحاك ابن عثمان الخزامي، عباد بن العوام، عبد الله ابن ادريس الأودي ، عبد الله بن حارث المكي، عبد الله بن سعيد بن عبد الملك أبو صفوان الأموي، عبد الله بن مبارك المروزي، عبد الله بن موسى التميمي، عبد الله بن المؤمل، عبد الله بن نافع الصائغ، عبد الله بن الوليد العدني، عبد الرحمان بن أبي بكر المليكي، عبد الرحمان بن الحسن بن القاسم الغساني الأزرق، عبد الرحمان بن أبي الزناد بن ذكوان، عبد الرحمان بن عبد الله بن عمر

[1]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٣١٥

[2]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٢

العمري.عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، عبد الكريم بن محمد الخراساني، عبد الملك بن الوليد، عبد الوهاب بن عبد المجيد النقطي، عطاف بن خالد، عمر بن عبد الرحمان بن محيصن، عمرو بن حبيب، عمرو بن أبي سلمة التنيسي، عمرو بن يحي بن عمرو بن سعد الأموي، الفضيل بن عياض، القاسم بن عبد الله بن عمر العمري، مالك بن أنس، محمد بن اسماعيل بن أبي خديك، محمد بن الحسن الشيباني، محمد بن خالد الجندي، محمد بن العباس الشافعي، محمد بن عبد الله الأنصاري، محمد بن عثمان بن أبي صفوان، محمد بن علي بن شافع، محمد بن عمر الواقدي، محمد بن يزيد الواسطي، مروان بن معاوية الفزاري، مسلم بن خالد الزنجي، مطرف بن مازن الصنعاني، معاذ بن موسى الجعفري، هشام بن يوسف الصنعاني، يزيد بن عبد الملك النوفلي، يعقوب بن قصا، يوسف بن الأسود، يوسف بن خالد السمتي، يوسف بن عمرو بن عبد اليزيد، يوسف بن يعقوب بن الماجشون، ابن أبي الكنان الخزاعي.

يقول ابن حجر:" فهؤلاء شيوخه الذين نقل عنهم العلم والفقه والحديث والأخبار سمع منهم بمكة واليمن والعراق ومصر، وكان مكثرا من الحديث، ولم يكثر من الشيوخ كعادة أهل الحديث، لإقباله على الأشتغال بالفقه حتى حصل منه ماحصل.[1]

الفرع الثاني: طلابه

لم يكن الأحد من الأئمة الأصحاب والرواة والتلاميذ ماكان للإمام الشافعي نوعا وعددا، قال داوود بن علي الظاهري: ومنها أي من فضائله، واتفق له من الأصحاب: مثل أبي عبد الله احمد في زهده وعلمه وغقامته على السنة ومثل سليمان بن داود الهاشمي، والحميدي والكرابيسي، وابن ثور والزعفراني، والبوطي، وابن الوليد بن أبي الجارود، وحرملة والربيع والحارث بن سريح، والقائم بمذهبه، أبو ابراهيم المزني، ولم يتفق لأحد من العلماء والفقهاء منا اتفق له من ذلك[2]

[1]- المرجع السابق، ص٥٣

[2]- المرجع السابق، ص٦٢

ومن البديهي أن داود الظاهري لم يستقصي وانام أتى بالأمثلة ويصعب الإستقصاء من أخذ او روى عنه وقد ذكر أسمائهم على حروف لمعجم حتى الأباء والأجداد العلامة لإبن حجر في كتابه توالي التأسيس.[1]

المبحث الثاني: آثاره العلمية وثناء العلماء عليه

المطلب الأول: آثاره العلمية

الظاهر أن أول كتاب وضعه في العراق كتاب الحجة وفيه مذهبه القديم قلنا: ان كتاب الرسالة وضع في مكة استجابة لطلب الإمام عبد الرحمان بن مهدي قبل قدومه الى العراق المرة الثانيو ورأى فخر الدين الرازي أنه صنفه في العراق، فتكون الرسالة على هذا اول كتاب له صنفه في العراق ثم بعده كتاب الحجة وكان الدافع الى تأليفه الرد على أصحاب الرأي قال الشافعي:" اجتمع علي أصحاب الحديث يسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة فقلت: لا أعرف قولهم حتى أنظر في كتبهم ، فأمرت فكتب لي كتب محمد بن الحسن فنظرت فيها سنة حتى حفظتهما ثم وضعت الكتاب البغدادي[2]، يعني الحجة وليس معنى هذا أن كتاب الحجة انما وضع كله للرد على أصحاب الرأي بل هو كتاب اجتهادي يبحث في جميع الوان الفقه مع الأدلة، ومن مباحثه الرد على المخالفين فهو بذلك مجموعة كتب شبيه بكتاب الأم الذي هو أيضا مجموعة من الاجزاء بلغت نحوا من مائة واربعين كتابا[3]

ومن عادة الشافعي ان يؤلف في مواضيع محددة كإختلاف الحديث وجماع العلم وابطال الإستحسان الى غير ذلك ثم جمعت هذه المؤلفات في كتاب[4].

وقد يرد ياقوت الحموي كتب الشافعي في كتابه معجم الأدباء[5]

---

[1]- الإستزادة، انظر كتاب ابن حجر، توالي التأسيس، ص٧٩

[2]- المرجع نفسه، ص٧٦

[3]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٣١٠

[4]- المرجع نفسه، ص٣١١

[5]- للإستزادة انظر كتاب معجم الأدباء لإبن حجر، ج١٧، ص٣٢٤

المطلب الثاني:ثناء العلماء عليه

قد أثنى العلماء على الشافعي، ونحن الآن بمعرض ثنائهم عليه وشهادتهم له:

قال أبوثور:" من زعم أنه رأى مثل محمد بن ادريس في علمه، وفصاحته، ومعرفته، وثباته، وتمكنه، فقد كذب، كان منقطع القرين في حياته، فلما مضى لسبيله لم يغتض منه"[1].

وقال شيخه سفيان بن عيينة:" وقد قرئ عليه حديث في الرقائق، فغشي على الشافعي، فقيل قد مات الشافعي:" ان كان قد مات ! فقد مات أفضل أهل زمانه"[2].

وقال بشر المريسي:" مارأيت أمهر من الشافعي"[3].

وقال أحمد بن حنبل:" ماتكلم في العلم أقل خطأ، ولاخذ أخذ ابنة النبي "صلى الله عليه وسلم" من الشافعي"[4].

وقال أيضا: وذكر الشافعي:" مارأيت أفضل منه ولا أفهم للعلوم منه"[5].

وقال أبو زرعة:"ما أعلم أحدا اعظم منه على اهل الإسلام من الشافعي"[6].

وقال أبو حاتم الرازي:" الشافعي سمي وأبوه سمي أبي ،ولولاه لكان أصحاب الحديث في عمى"[7].

وقال الزعفراني:" مارأيت مثل الشافعي أفضل ولا أكرم ولا أسخى ولا أتقى ولا أعلم منه[8] وهذا قليل، قليل، من كثير من ثناء بعض العلماء عليه بما هو أهله وقد رأيت أنهم فضلوه على من عرفوا من ائمة العلماء في زمنهم[9].

---

[1]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٩

[2]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٦٦

[3]- النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج١، ص٦٣

[4]- المرجع نفسه، ج١، ص٦٠

[5]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٧

[6]- المرجع السابق، ص٦١

[7]- المرجع نفسه، ص٦١

[8]-المرجع نفسه، ص٥٥

[9]-عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٣٤١

المبحث الثالث: التعريف بكتاب الرسالة

المطلب الثالث: الشافعي أول واضع لعلم أصول الفقه في كتاب الرسالة

أجمع العلماء والفقهاء: أن أول من ابتدع علم الأصول الشافعي، قال الفخر الرازي:" كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه، ويستدلون ويعترضون، ولكن ماكان لهم قانون محلي مرجوع إليه في معرفة الشريعة، وفي كيفية معارضاتها وترجيعاتها، فأستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانونا كليا يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت أن نسب الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسطو طاليس إلى علم العقل"[١].

وقال بدر الدين الزركشي في كتاب "البحر المحيط في الأصول مخطوط" الشافعي أول من صنف في أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الإستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس"[٢].

ويقول ابن خلكان:" الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه، وهو الذي استنبطه"[٣].

وهذا يؤكد بما لا مجال للشك فيه:" أن الشافعي واضح أصول الفقه عامة، لأن ذلك بالنسبة إلى مذهبه خاصة، أنه أول من أنشأ هذا العلم وابتدعه، وما من أحد ألف في هذا العلم بعده إلا وهو عالة عليه"[٤].

---

[١]- الفخر الرازي، مناقب الشافعي، ص٥٧

[٢]- أحمد محمد شاكر، مقدمة الرسالة، ص١٣

[٣]- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٦٦

[٤]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٢٢٩

المطلب الثاني: دواعي تأليفه ومضمونه

الفرع الأول:دواعي تأليف كتاب الرسالة

والذي أثار فكرة هذا العلم عند الشافعي – كان شابا- رسالة جاءته من إمام أهل الحديث في عصره عبد الرحمان بن مهدي، وكان في العراق يطلب فيها منه:" أن يضع له كتابا فيه معاني القرآن ويجمع مقبول الأخبار فيه، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة"[1]

وانما هي رسالة إلى عبد الرحمان بن مهدي أرسلها مع الحارث ابن مريخ النفال، وبسبب ذلك سمي النفال

وهكذا اشتهر اسمها بين العلماء وفي عصره ومابعده، اما الشافعي نفسه فلم يسم الرسالة بهذا السم وانما كان يسميها بهذا الاسم، وانما كان يسميها الكتاب أول يقول كتابي[2].

الفرع الثاني: مضمون الرسالة

أما ماتضمنته الرسالة بصفة عامة فقد لخصه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب ابو سليمان في كتابه "الفكر الأصولي".

ولدقة عباراته ووفائهما بالمقصود ان حيث قال:"افتتح الإمام الشافعي الرسالة بخطبة مسهبة تدور حول أهمية رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية جمعاء وبين فيها أهمية الكتاب العزيز، وقد اشتملت على العناصر الرئيسية التالية:

الناس قبل النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم صنفان:

إما أهل كتاب وإما أهل كفر.

بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ومزاياها، وأنه صلى الله عليه وسلم سبب كل خير.

تنزيل الكتاب العزيز ونقله البشرية من الكفر والعمى إلى الضياء والهدى.

ما أنزل الله في الكتاب العزيز رحمة وحجة.

حث طلبة العلم على بلوغ غاية جهدهم في الإستكثار من علوم القرآن.

[1]- الفخر الرازي، مناقب الشافعي، ص٥٧

[2]- عبد الغني الدقر، الإمام الشافعي، ص٢٢٥، ص٢٣٠

شمول الكتاب العزيز" فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها"

ثم ذكر من الآيات مايشير الى هذا المعنى، والأغراض التي من أجلها نزل القرآن الكريم، ومن جملة ذلك: تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم للناس مانزل إليهم من القرآن، وهذه الخطبة في عناصرها التي اشتملت عليها اوحي بها الواقع للمجتمع العلمي الذي كانت تعيشه كلتا المدرستين: أهل الحديث في الحجاز، واهل الرأي في العراق.

ففي خطبة الكتاب ينعى الإمام الشافعي على الأمة الخلاف في الدين، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حسم ببعثته الخلاف بالنسبة للماضيين من أهل الكتاب وأهل الكفر، وماخلفه بعده من كتاب وسنة جدير أن يقوم بمثل ذلك الدور اذا تفهمناها حق الفهم.

ومن ثم بدأ وضع المقاييس والموازين من قواعد وقوانين مستفادة من مصادرها يحتكم إليها عند الإختلاف.

ثم تلا ذلك "باب كيف البيان".

بدأ أولا بتعريف البيان وأنه اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع وهو يعني لهذا ما فعله بعد ذلك من أقسام البيان الأربعة وهي:

- ماأبان الله لخلقه نصا.
- مااحكم فرضه بكتابه، وبين كيف هو على لسان نبيه.
- ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه نص حكم.
- مافرض الله على خلقه الإجتهاد في طلبه.

وكان هذا الباب هو خطة الكتاب (الرسالة) فإن معظم موضوعاتها ان لم تكن كلها- تدخل ضمن واحد من تلك العناصر الأربعة الرئيسة.

فمن ثم بدأ أولا بموضوعات الكتاب العزيز وبيانه،ثم نفذ من ذلك إلى دراسة موضوعات السنة النبوية المصدر الثاني للأحكام الشرعية، وعلاقة السنة بالكتاب ثانيا.

وقد مهد لها مع نهاية الموضوع الأول فجاء " باب فرض الله طاعة رسول الله مقرونة بطاعة الله ومذكورة وحدها".

كما نوه في مقدمة دراسته عن الخطة التي يسير عليها والموضوعات التي سيبحثها فقال:

"فأول مانبدأ به من ذكر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كتاب الله، ثم ذكر الإستدلال بسنته على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله ثم ذكر الفرائض المنصوصة التي سن رسول الله معها، ثم ذكر الفرائض الجمل التي أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله كيف هي ومواقيتها، ثم ذكر العام من أمر الله الذي أراد به العام، والعام الذي أراد به الخاص، ثم ذكر سنته فيما ليس فيه نص كتاب"

وتناول كل موضوع من هذه الموضوعات بالتفصيل وضرب الأمثلة من القرآن والسنة.

ثم تطرق الى وجود الإختلاف في الآثار وطريقة الأخذ بها وخصص باب العلم بالأحكام الشرعية، مما لايسع أحد الجهل به، ومما كان منها مختصا بالخاصة من المختصين، وخبر الواحد وحجيته، وقد أفاض فيه القول.

استغرق هذا البحث مايقارب نصف كتاب ثم الاجماع وحجيته.

وأن جماعة الأمة لا تجتمع على خلاف السنة رسول الله ولا على خطأ.

ثم القياس وحجيته وشروطه الأساسية، وألحق به الاجتهاد ابتداءا، ثم الاستحسان وعدم جواز ماكان منه على غير قياس صحيح، وانه في الحقيقة تلذذ من صاحبه، ثم باب الإختلاف وذكر فيه المذموم منه والممدوح وانهاه بموضوع أقاويل الصحابة والإستدلال بها.[1]

المطلب الثالث: قيمة كتاب الرسالة العلمية

الذي يدعوا الى الإعجاب أن يكون الشافعي كتب هذه الرسالة في أصول الفقه، وهو شاب طلبها منه امام في بغداد في الحديث ومعنى هذا أن الشافعي الشاب شهرة في العلم والعقل حملت امام المحدثين أن يطلب منه أن يفيده بأصول العلم والفقه، ولما وصلت الرسالة له جعل يتعجب ويقول:" لو كان اقل لنفهم! ولو كان أقل لنفهم!"[2]

[1]- عبد الوهاب سليمان، الفكر الأصولي، ص٩٧

[2]- السبكي، طبقات الشافعية، ج٢، ص١١٢

وقال:" لما نظرت الرسالة للشافعي اذهلتني لأنني رأيت كلام رجل مما قيل فصيح ناصح، فإنني لأكثر له الدعاء"[1]

وقال:" ماظننت أن الله خلق مثل هذا الرجل"[2] فأي نوع هذا ؟! وأي مجد علمي ارتقى إليه الشافعي في سن مبكرة وليس ابن مهدي وحده المذهول بكتاب الرسالة وانما ائمة كثيرون اشتد بهم الإعجاب بها، وبما تضمنته من علم جديد كل الجدة جدير بالعناية والدرس.

فهذا المزني يقول:" قرأت الرسالة خمسمائة مرة مامن مرة إلا استفدت منها فائدة جديدة" وفي رواية عنه قال:" أنا انظر في الرسالة من خمسين سنة ماأعلم أني نظرت فيها مرة إلا واستفدت شيئا لم اكن عرفته".

وهذا يحي بن سعيد القطان قال حين عرض عليه كتاب الرسالة:" مارأيت أعقل أو أفقه منه"[3] وقال عبد الملك الميموني:" قال لي أحمد بن حنبل: لم أنظر في كتاب أحد ممن وضع كتب الفقه غير الشافعي وانه قيل لي: لم لا تنظر فيها وذكر لي كتاب الرسالة فقدمه عن كتبه، فقلت: يا أبا عبد الله؟ بم ذاك الكلام بالإحتجاج، ونحن مشاغيل بالحديث؟[4].

[1]- ابن حجر، توالي التأسيس، ص٥٥

[2]- مرآة الجنان، ج٢، ص١٧

[3]-النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج١، ص١٦

[4]-ابن أبي حاتم الرازي، آداب الشافعي ومناقبه، ص٦١